مقدمة

ليس الحوار مجرد وسيلة تخاطب نحتاجها في حياتنا اليومية، للاتصال والتواصل مع الآخرين، لقضاء حاجاتنا الاجتماعية والنفسية والإدراكية، إنما هو منهج في الحياة، منهج متسع يتجاوز اليومي إلى طريقة التفكير والمناقشة العميقة.

نحتاج إلى الحوار - بوصفه منهجًا في الطرح الفكري والتبادل الثقافي - في عالمنا المعاصر، فنريد أن نتحاور - نحن المسلمون - مع أهل الديانات السماوية ومختلف الشعوب والحضارات، تحاور المثاقفة، والمناقشة، والإثراء المتبادل، فلدينا رصيد ضخم من المعرفة والقيم والطرح الحضاري الذي يحتاجه الآخرون، مثلما نحن في حاجة إلى التعرف على منجزاتهم الفكرية والحضارية والإنسانية.

إن انعدام الحوار بين الأُمم مشكلة يعانيها عالمنا المعاصر، رغم كل دعوات المحاورة والتبادل المعرفي والثقافي، فكل مظاهر التعصب والتطرف الفكري، والغلو في الخصومة التي نراها منذ عقود، عائدة إلى تبني وجهة نظر واحدة، وعدم الاستعداد لقبول وجهات النظر الأخرى، والتعرف عليها ولو من باب المعرفة في مستوياتها الأدنى؛ وهذا يعود إلى تصور البعض أنه مركز العالم، وأن حضارته صانعة التاريخ، والتاريخ يدور وفقًا لقيمهم هم، ووفقًا لتصوراتهم هم، وهذا ما رفضه المفكرون المستقلون المحايدون في العالم، ونادوا بتعدد الحضارات، وتعدد الثقافات، وقبول الآخر. وقد ظهرت العديد من الكتب التي تثبت أن المركزيات الفكرية في العالم سقطت، وسقطت أيديولوجيتها الفكرية التي تجمدت حول ذواتهم، فظنوا أنهم - وحدهم - مُلَّاك الحقيقة المطلقة.

ولعل أبرز ما تناول قضية "سقوط المركزيات الثقافية"، كتاب "ما بعد المركزية الأوروبية" [١] وخلاصة بحوثه: أنه لا يمكن أن نفهم تاريخ العالم وثقافته في ضوء القياس على التاريخ الأوروبي وثقافته فقط بل يجب إبعاد الهيمنة الثقافية

١) ما بعد المركزية الأوروبية، بيتر جران، ترجمة : عاطف أحمد، إبراهيم فتحي، محمود ماجد. نشر : المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨.

الغربية، والتحاور الموضوعي مع مختلف أيديولوجيات العالم وعقائده، فكل مجتمع له ثقافته النابعة من معتقداته وتكوينه التاريخي والاجتماعي على مر العصور.

ويأتي كتاب "الشرق المتخيل: رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي" ليوضح الإشكالية الأساسية في منظور الغرب إلى المجتمع المسلم، فالنظرة الغربية لا تزال خاضعة لموروث تاريخي عائد إلى أيام الحروب الصليبية، وكيف كان العَداء مستعرًا بين تحريض الكنيسة الكاثوليكية أوروبا ضد الإسلام والمسلمين، ومن ثم تطورت الصورة إلى أن يكون المسلم في الوجدان الجمعي الغربي شريرًا، فالمسلم: يُلقَّب بالمحمدي (في إشارة جلية إلى أن رسالة الإسلام من وضع الرسول محمد وليست منزلة من الله تعالى) وهو شهواني، ضال، مفتون بجنات تعج باللذائذ الحسية فيه صورة سلبية فظة [٢]، وهي صورة ينكرها علماء الغرب المحايدون، ويرون أن هذه الصورة ناتجة عن تشويه متعمد وسوء نية، ورغبة في عدم التعرف على الآخر [٣]، وليست لديهم أي صورة عن كون الإسلام قد: "فتح طريق الديانة التوحيدية الأصدق والأطهر. فالإسلام، لا بل الإسلام المنتصر، لا ينقصه شيء مما تحسد عليه المسيحية، هذه الديانة التي تقدس الألم والإذلال والهزيمة (صلب المسيح) أكثر ما ذهب إليه (يقصد الإسلام) أنه ينكر على المسيح صفة الألوهية"[٤] وقد شعرت الطوائف المسيحية بالحرية في ظل حكم المسلمين ومارست شعائرها في مناخ متسامح، وعاشت حياة طيبة، وتشكلت عقول أتباعها بثقافة المسلمين، وهذا كان مجهولاً في الغرب [٥].

---

٢) انظر : الشرق المتخيل : رؤية الغرب إلى الشرق المتوسطي، تييري هنتش، ترجمة : غازي برو وخليل أحمد خليل، منشورات : المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٩١- ٩٣. ويسمي المؤلف صورة المسلمين في اللاوعي الجمعي الغربي "صورة الهرطقة"، ويدين بشدة هذه الصورة المتخيلة.

٣) المرجع السابق، ص٩٤. ومن هؤلاء العلماء : نورمان دانييل في كتابه " الإسلام والغرب "،و يواكيم مبارك، وماكسيم رودنسون.

٤) المرجع السابق، ص٧١.

٥) انظر : السابق، ص٧٢، ٧٣.

من هنا يكون الحوار هو السبيل الوحيد بين أبناء الحضارات والثقافات المختلفة للتلاقي المعرفي وفهم الآخر، وهذا ما تسعى إليه هذه الدراسة؛ أن ندرس ثقافة الحوار في ديننا الإسلامي الحنيف. إنها دراسة تنطلق من المعطيات المعرفية للحوار: لغويًا وفلسفيًا واجتماعيًا وعلميًا، وتسعى إلى قراءة السيرة النبوية العطرة، والأحاديث النبوية الشريفة التي اعتمدت الحوار وسيلة ومصدرًا معرفيًا أساسيًا في الدعوة ونشر الإسلام. فلم يكن الرسول ﷺ فيلسوفًا يناقش قضايا نظرية بحتة، بل هو مبعوث من الله تعالى إلى البشرية جمعاء، بالقرآن، والتوحيد، وهو مُرّبٍ لأصحابه، مُهذِّب لسلوكهم، جعل حياته: ليلاً ونهارًا، سِلمًا وجهادًا، وسيلة للتحاور بين الناس، وتعريفهم بدينهم، وترسيخ قيم العقيدة ومفاهيم الشريعة في أعماقهم، وتحبيبهم في الخير.

في ضوء هذا الهدف، جاءت خطة الدراسة موزعة على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: يتناول مفهوم الحوار بوصفه إطارًا معرفيًا، وآلية في التلاقي بين العقول، وقد سعى المؤلف إلى تعميق هذا المنطلق من خلال التعميق اللغوي ثم الفلسفي والفكري للحوار، في ضوء معطيات علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاتصال، وهي علوم معاصرة، سعت إلى استقراء الحوار بشكل شامل.

كما تطرق المؤلف إلى التفرقة بين الحوار والجدل والجدال والمراء، وكيف تناول القرآن الكريم الحوار، ثم أخص ما تميز به أسلوب الرسول لغة وتراكيب وبناءً، وهو ما تميز به الرسول وجعل أسلوبه سهلاً ممتنعًا، يقتبسه الأديب، ويحتج به اللغوي، ويستشهد به الفقيه، ولا عجب أن يكون المصدر الثاني للشريعة الإسلامية السمحاء، ووثيقة صانعة لثقافة الأمة المسلمة.

الفصل الثاني: وقد تناول المؤلف فيه أشكال الحوار وبنيته في الأحاديث النبوية وهي أشكال متعددة شملت: الكلام باستخدام الجوارح، والحدث والتعليق عليه، والقصة، والمواقف الحياتية المختلفة. وسعى المؤلف من خلاله إلى حصر أشكال الحوار النبوي، وكيف أن المتحكم في تكوين كل شكل هو: غرض الرسول، ثم الموقف الذي تطلب أن يتكون هذا الشكل.

الفصل الثالث: ويتناول أبرز فئات المجتمع والشخصيات التي حاورها الرسول ﷺ في مسيرة دعوته، ولم يكن الهدف في هذا الفصل الحصر لمختلف الفئات، بقدر ما هو التركيز على أسلوب الرسول في دعوتهم والحوار، وطريقته في تناول القضية الواحدة بجوانب متعددة، حسب مستويات المخاطبين والمتناقشين معه، فجاء الحوار مع: المشركين، والبسطاء، وحول تقلبات النفس المسلمة في الحياة.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلف اعتمد منهجين في هذه الدراسة، الأول: المنهج الاستردادي التاريخي للآيات القرآنية المعنية ولأحداث السيرة النبوية وأحاديث الرسول ﷺ. والثاني: المنهج التحليلي العقلي في التأمل والتفكر مع الربط بخصائص النفس الإنسانية بشكل عام. كما كان المؤلف معنيًا – بالدرجة الأولى – في تناوله الأحاديث الشريفة، وأحداث السيرة النبوية من منظور شامل للأبعاد: اللغوية والجمالية والإسلامية والفكرية والاجتماعية، ومحاولة قراءة الإشارات المختلفة في الحديث الشريف، من أجل إيضاح المنهج الحواري الذي اتبعه الرسول محمد ﷺ. أما اختيار الأحاديث الشريفة، فقد سعى المؤلف إلى الاعتماد على كتب صحاح السنة الأساسية والمتفق عليها بين العلماء والمحدّثين، دون الإشارة إلى تعدد المصادر والروايات التي ذكرت الحديث أو النص، فقد اكتفى النص لفظًا من مصدر واحد صحيح السند. وقد اعتمد أيضًا تكرار اسم المصدر، ورقم الحديث والكتاب الذي جاء فيه ضمن كتاب الصحيح، في كل إشارة مرجعية؛ لمزيد من التوثيق، وكان الحاكم في استشهاداته أن تكون معبرة أشد التعبير عما يطرحه في جزئيات البحث.

وختامًا، أدعو الله تعالى أن يجعل هذه الدراسة في ميزان حسناتي وأن يغفر ما زللت فيها، فهي من لوازم الجهد البشري؛ وأن تكون جزءا من دراسات وتراكم معرفي يقدّم هدي النبي الأعظم ﷺ ومقولاته ونصوصه لتسترشد به الإنسانية جمعاء، فما أحوجها إلى هذا الهدي المنير !.